أثر الأغانى فى النفس

تغنت بصوت أعجمى فهيجت من الشرق ما كانت ضلوعى أجنت

قاله شاعر عربى ، شجاه ترجيع طير على فنن ، وأهاج حنينه غناء الطير على الغصون ؛ فما باله إذا استمع مغنى ملهم ، أو مطرب مجيد ؟ إذاً لا تتجرت عاطفته ، ولهلل وكبر : إذ أن فى الغناء الجيد من القوة والسلطان على النفوس ، ما يجعلها تهيم فى أودية الخيال فقد تسمع الأغنية الحماسية ، فتستثير شجونك وتهزك هزا عنيفا ؛ وتبعث فى نفسك الأمل ، وتشيع فيها الرجاء ، وقد تسمع إلى الخطيب المفوه ، فيثير حماستك ، وتستنهض وطنيتك ، وتعجب به أيما إعجاب ، ولكنه لا يبلغ من نفسك ما تبلغه أغنية وطنية ، أو نشيد حماسى ، يبلغ قول الخطيب إلى عقلك ، فيعجبك لبلاغته ، وتقدر فنه الكلامى ؛ أما الأغنية ، فانها تتسلل إلى نفسك ، وتمتزج بروحك ، فتلهب نفسك حماسة ، وتشعل فيك نار الوطنية الصادقة ، فتسمع إلى الخطيب فتعى قوله بعقولنا ، أما الغناء فان العاطفة هى التى تلتقطه ، فتسلمه إلى النفس فتؤثر فيها قبل أن يفحصه العقل ؛ الخطيب يحادث العقول ، أما المغنى فانه يناجى العاطفة ، وما أسرع أن تجيب العاطفة الى القول الرقيق ، الذى يبحث عن مواطن الضعف من الانسان ، فينصب حوله شباكه ، فلا يلبث المرء أن يجد نفسه فى الحبائل مقتنصا لا يستطيع منها فكاكا . والانسان فى هذه الحياة يكد ويتعب ويقاسى من الآلام الشىء الكثير ، فاذا ما أخلد إلى الراحة ، واستمع الى صوت جميل ، يردد أغنية عذبة ، شعر بغبطة وطمأنينة ، واستجمع قواه ، وجدد نشاطه فيقبل بعد ذلك على عمله ، بنفس راضية منشرحة ، ويسير فى كفاحه بقلب ملىء بهجة وسروراً ، ألم تر إلى العمال المجهدين كيف أنهم بترديدهم أناشيدهم ، يسهلون العمل ، ويقللون من التعب ، ويخففون العبء الثقيل ؟ النشيد الاجماعى يسليهم ، ويوجه أفكارهم إلى النغم والتوقيع ، بينما العمل جار ، أيديهم تحركه ، وكأن لعملهم نهض به ، ولا يلبث أن ينتهى وهم بصعوباته غير شاعرين ، وكذلك كل ذى عمل ، إذا شعر بضجر من كثرة عمله ، فانه يدعى ويجلس لسماع أغنية عذبة ؛ وما هى إلا فترة السماع ، حتى يعود إليه ، وكأن قوة سحرية مرت فى جسمه ، وأبدلت عمله نشاطاً ، وبسأمته وضجره همة وقوة .

وقد أنشئت فى البلاد المتحضرة ، مستشفيات لمعالجة الأمراض العصبية ، تتناول المرضى بأنواع من العلاج ، قد تستبعد الصلة بينها وبين المرض ، فبعض المرضى يعالج

بممارسة الرياضة البدنية فى الهواء الطلق ، وبعض آخر يعالج بوجوده فى أمكنة يغلب عليها لون معين ، وأهم انواع العلاج لهذه الأمراض الموسيقى والغناء ؛ فقد ثبت بالتجربة أن الموسيقى تهدىء الأعصاب المضطربة ، وتسكن النفوس الثائرة . ولأجل أن يكون تأثير الأغانى شاملا طبقات الأمة كلها ، يجب أن تتناول الأغانى ، جميع الأغراض ، فهى الآن تكاد تكون وقفا على الغرام والحنين . وما تتصل بذلك من معان ، وليس فيها إلا النادر القليل فى الوطنية ، يجب أن توضع أغانى للعمال فى أعمالهم ، وللصناع فى صناعاتهم ، لتقوم ألسنتهم ، وتهذب لغتهم ، يجب أن توضع أناشيد للطلبة فى مدارسهم فى محبة الوطن ، وفى تحيتهم فى دروسهم ، يرددونها فى أوقات فراغهم ، وأناشيد لفرق الجيش ينشدونها فى الظعن وفى الاقامة ، وأناشيد لصغار الأطفال ، يلقنونها فى رياضهم ، ويلتقطونها من الفرق التى تعزف فى المتنزهات العامة . ولم يقف تأثير الأغانى عند الانسان فقط ، بل تعداه إلى الحيوان الأعجم ؛ ولذلك قرأت فى كتب التاريخ ، أن العرب كانوا يستحثون إبلهم على السير بالغناء ، وكانت الابل تطمئن إلى صوت الحادى ، وتنتعش بحدائه ، فيستخفها الطرب ، وينشطها انشاق النغم فتجد فى السير غير عابئة بوعثاء الطريق ، وكذلك فرق الجيش ، فالخطى تسير بنظام موافق لانغام الموسيقى التى تحدوها ، وإذا ذهبت إلى ملعب من ملاعب (السرك) رأيت عجبا ، حصانا تظنه لا يعقل ، تؤثر فيه النغمات ، فيهتز لها ، ويميل معها ، إذا علت علا بحركته ، وإذا انخفضت ، انخفض معها ، مسايرا لها ، طروبا بها ، ويبلغ منك العجب أشده وأنت ترى أفيلا كبيرة الحجم ، بشعة المنظر ، قد استغلت يد ماهرة ، غرامها بالموسيقى ، فدربتها أحسن تدريب ، وعلمتها ألعابا وحركات تقوم بها عندما تسمع انغاما خاصة ، ومثل الحصان والأفيل كثير من الحيوانات ؛ فقد كان للموسيقى فضل فى تدريبها لعمل تمرينات رياضية خاصة ، وفى ذلك دليل على قوة سلطان الموسيقى حتى على الحيوان الأعجم ، وذلك هو التأثير النفسى ، وهناك تأثير أدبى ، لا يقل أهمية عن سابقه ، تتناول الأغانى لغة الجمهور بالصقل والتهذيب ، لأنه كثيرا ما يرددها ، وبها من الألفاظ الصحيحة والتعبيرات الجميلة ، ما ينطبع فى الأذهان من تكراره ، واذا تحدثت إلى شخص من عامة الناس ، وجدته يستعمل ألفاظا صحيحة ، وجملا مستقيمة ، يدهشك صدورها منه وهو مع ذلك يستعملها فى كلامه عفوا من غير قصد ، والفضل راجع الى الأغانى التى أفادته هذه الرقة وذلك التهذيب .

هذا ، وإن الروح تطلب غذاءها ، وما غذاؤها إلا الأغانى والموسيقى .

عبد العزيز بزه

مدرس بمدرسة دشنا الثانوية